

شعوب وأنظمتها بقلم غسان سلامة

عدت مساء الاحد من القاهرة لأصعق صبيحة الاثنين بهول العملية الدموية التي جرت في الاقصر، وكنت عبرت بها قبل ايام. صحيح ان هجومنا على سياح المان كان قد حصل في ايلول الماضي في قلب ميدان التحرير بالعاصمة المصرية، وان ثلاثة افراد من الشرطة سقطوا يوم مغادرتي مصر. صحيح ايضا ان الشعور بخطر ما يراودك دوما، بالذات لأن اعداد الشرطة المسلحة منتشرة في كل المناطق التي يرتادها السياح الاجانب في القاهرة، كما في الوادي، كما في الفردقة على البحر الاحمر (التي قامت جماعة مسلحة بعملية فيها قبل سنتين) او في شرم الشيخ. الا ان عملية الاقصر فاقت كل عمليات الحركات المسلحة هولا، لا في عدد ضحاياها المائل فحسب، ولا بتأثيرها السلبي المتوقع على الاقتصاد المصري، بل اولا واساسا في موعد حصولها.

اذ يقف المرء مذهولا امام حادث دموي خطير النتائج يحصل تماما في اليوم الذي تستقبل فيه القاهرة مسؤولا عراقيا رفيعا جاء يستجير بها او بينما يسير مؤتمر الدوحة في طريق رتابته وفشله، بعدما نجحت مصر، مع غيرها من الدول، بتمميشه. ستذهب الاعلام المصرية فورا في اتجاه ربط هذه الامور معا، وخصوصا ان مادلين اولبرايت، على غير عادة، تناست مصر في عبورها بالمنطقة، والاميركان تأفخوا من مواقف القاهرة الواضحة من العراق كما من الدوحة. ولا أشك ان مسؤولين ومحللين مصريين نظروا فورا الى حادثة الاقصر من منظار حده الادنى القول عن اعضاء الجماعة المسلحة انهم "لا يدرون ماذا يفعلون"، وحده الاقصى اتهامهم بالعمل، عن وعي وسابق تصميم "لمصلحة أعداء مصر"، وبالذات لمصلحة واشنطن وتل ابيد.

أما في الدول الغربية، فقد هبت شركات السفر لاستخراج النتائج من العملية الدموية، ان بارجاع السياح فورا من مصر الى بلدانهم او بالتعويض الكامل على اولئك الذين كانوا على أهبة السفر الى أرض الكنانة. ذلك ان مصر مقصد بات طبيعيا للسياح، ذهب اليه اربعة ملايين منهم خلال السنة الماضية. ولقد فوجئت فعلا باعدادهم الكبيرة في مطار القاهرة وفي الفنادق رغم الحادثة التي أودت بعشرة من الالمان قبل اقل من شهرين. ان تكاد لا تجد غرفة في فندق ولا مقعد في طائرة على رحلة داخلية نحو الاقصر او سيناء او البحر الاحمر. وتحولت شرم الشيخ من نقطة على

بين تحولات اقتصادية وسياسية مثيرة للاعجاب واعلام رسمي طيغ ما زال يفكر على طريقة أحمد سعيد، وكأنه يعبر عن نظام تسلطي لا يهمنه نمو البلد ونفوذ بقدر ما هو مهووس بالاستيلاء التام على الرصيد المعنوي المتأتي من ذلك النمو.

وبدا هذا التناقض بين حداثة الاقتصاد المتسارعة وتخلف الجهاز السياسي - الاعلامي حادا يوم حادثة الاقصر نفسها اذ لجأت القناة الفضائية المصرية الى الاساليب التجهيلية البالية عينها في متابعتها للحدث. وفي نشرة الاخبار المسائية الاولى مرت أخبار رسمية كثيرة قبل ان تتناول النشرة عملية الاقصر التي كانت، في المقابل، العنوان الاول والاخطر في كل وسائل الاعلام الدولية. وبدا الارتباك الرسمي على حقيقته في النشرة المسائية الثانية التي تأخرت عن موعدها اكثر من ربع ساعة لكي تبدأ بسيل عن اخبار نشاط الرئيس واعضاء الحكومة لمواجهة الحادث وبسيل آخر من برقيات التعزية الدولية لمبارك بينما لم يحصل المشاهد الباحث عن تفاصيل الحادث نفسه الا على ارقام مغلوطة باصرار تعترف بأقل من ربع رقم الضحايا الحقيقي وعن الاشادة مكررة حتى الثمانين بتعاون سكان الاقصر من رجال الامن في ملاحقة الفاعلين وعلى تصريحات رسمية مزعجة كمثمل كلام وزير السياحة المصري الذي فاجأه الحادث في لندن فصرح للي. بي. سي بأن "الامن في القاهرة افضل مما هو في لندن ونيويورك"، مما أثار لدى الصحافي الذي يسائله، كما عند أي مشاهد، ابتسامة صفراء.

في الملمات، ما زالت الانظمة العربية تكشف عن طبيعتها العميقة، اذ تهتم لصورتها عند الناس اكثر من التزام الحقيقة او العمل على مواجهة المصاعب، وكان هذه الانظمة ما زالت تحكم بذهنية الخمسينات بينما شرائح واسعة من مجتمعاتها تعصرت لدرجة الدخول بثقة في القرن المقبل وتطلباتها. ولا تبدو هذه المفارقة جلية بقدر ما تشعر بها في مصر، بالذات لأن حرية الرأي واسعة الى حد كبير، ولأن الاقتصاد في طور تحديث متسارع، ولأن الرشد يحكم بثقة جل الخيارات الديبلوماسية، بينما نظام الحكم لم يحصل عليه اي اصلاح ملموس او أي تحديث حقيقي. فبقية مؤسسات التمثيل الشعبي فيه هشة سطحية، وبقي التداول السلمي للسلطة عرضة للتساؤلات المركبة كما بقي الجهاز الاعلامي بخدمة النظام فلم يتحول بعد الى خدمة الحقيقة. وكان النظام السياسي يسعى باستمرار للتركيز على انجازاته ولحرف النظر عن طبيعته وهي ما زالت، في جوهرها، تسلطية.

من هنا شعور واسع بالحرج في مقاربة هذا النوع من الانظمة. فاذ يشعر المرء بالتضامن الصادق مع مصر في ملماتها، يعود فيتعهد بعض الشيء عندما يلمس تكلس نظامها. وقد تشرف بالحرج نفسه مع انظمة عربية اخرى كمثل تعاطفك الحقيقي القديم مع شعب العراق في محنته وجنوح النظام شبه العفوي لاستغلال هذا التعاطف في مجال دعاوته الداخلية. او كمثل شعورك بالامتنان لسوريا والتضامن معها لحملتها الموفقة ضد مؤتمر الدوحة الاقتصادي والحاح الاعلام السوري على استصراح القاصي والداني مناسبة نذكرى "الحركة التصحيحية" التي توافق موعدها مع الدوحة. او كمثل تضامك العفوي مع مأساة الشعب الفلسطيني والحاح هذا الطرف الفلسطيني او ذلك لاستغلال ذلك التضامن مع عرفات تارة وضده طورا ومع "اوسلو" اليوم وضدها غدا. ولا يهتم نظام الجزائر بمؤاساتك للضحايا البريئة هناك اذا لم تكن مستعدة لشمم الاصولية والاصوليين ولتأييد قمعهم في المطلق.

وكان النظام والمواطن في دنيا العرب باتا يتحدثان بلغتين مختلفتين، اذ لا يهتم الاول الا باستصراخك عن شرعية استمراره خلال دفعك للاشادة ب "أعماله التاريخية الكبرى"، بينما يتعاطف الثاني ويتضامن مع مواقف معينة، وقضايا محددة. وبينما بات المواطن لا يهتم كثيرا لهوية رئيس كل نظام ولا يتماهى مع أي نظام بعينه بوصفه الافضل والامل، فإن الانظمة ما زالت تسعى للحصول على صكوك بشرعيتها، كاملة وشاملة ومكررة. وبينما بات الناس يحكون على الانظمة "بالمفرق" فيميزون مثلا بين رفضهم لممارساتها التسلطية وتأييدهم لمواقفها الوطنية، ويفرقون بين سياساتها في الداخل وفي الخارج، ما زالت الانظمة نفسها تسعى لهيئة وراءه تأييد "بالجملة" لها يسبغ عليها شرعية شعبية مطلقة هي الادري بأنها تفتقد منذ زمان ولن تحصل عليها لا اليوم ولا في الغد.

عسان سلامة

خريطة الى مدينة يعمل فيها نحو مئة الف من المصريين بخدمة السياح، ويبني فيها حاليا فندق جديد كل شهر تقريبا، بينما تتحول ذهب الى الشمال وطابا ايضا الى مدينتين سياحيتين نشطتين ستبزان شرم الشيخ بسرعة، فيما تعددت المدن السياحية على الشاطئ الغربي من البحر الاحمر ايضا مشيرة الى تمكن مصر المذهل خلال السنوات القليلة الماضية من استقطاب السياح المتكرر لا الى معابد حبشتسوت او اهرامات الجيزة فحسب بل الى شواطئ ومنتجعات مشمسة ايضا.

واسم هذا النمو السياحي المائل في شيوع جو اقتصادي كبير التفاؤل. فمصر مثلا كانت السنة الماضية على رأس قائمة اسواق الاوراق المالية في الدول النامية بزيادة مقدارها ٤٠ في المئة على متوسط اسعار الاسهم في سنة واحدة. وتوجد سعر صرف العملة الوطنية وتمتع بثبات متين، كما تزايدت الاستثمارات الاجنبية في موازاة اصلاحات اقتصادية هيكلية بدأت بوتيرة بطيئة للغاية في الثمانينات وتسرعت خلال التسعينات. وكانت المؤسسات المالية الدولية تتوقع لمصر نموا تحسد عليه يتجاوز ٥ في المئة في انتاجها الاجمالي. كما بدا ان هذا الجو المتفائل سيسهم تدريجا في استيعاب نحو نصف مليون شاب مصري يدخلون سنويا سوق العمل. وتحسنت المؤشرات المالية ايضا اذ بات الاحتياطي المصري من العملات الاجنبية يتجاوز ٢١ مليار دولار، وانخفض الدين الخارجي الذي كان للأمس القريب هائلا، الى ما دون ٥٠ في المئة من الناتج الاجمالي، كما هبطت نسبة التضخم الى ٥ في المئة وما دون.

وتسهم السياحة بالدور الاساسي في هذا التحول الايجابي الواسع اذ تلعب في الواقع دور القاطرة للاقتصاد المصري لا في مجال السفر والفنادق فحسب، بل في مجالات كثيرة اخرى تحتاج اليها السياحة كي تنمو: من الصناعات الغذائية الى وسائل الانتقال الى صناعة الموبيليا وما شابه. لذلك أصاب الفاعلون من بلدهم مقتلا، لأن آثار العملية في الاقصر ستكون في الارجح أعمق وأخطر وأبعد في الزمن من العمليات السابقة، وخصوصا اذا انتهت بعد اليوم عمليات اخرى. ويتضح من هذه العملية، كما من سابقتها في ايلول، ان قادة "الجماعة الاسلامية"، وقادة تنظيم "الجهاد" المنافس لها الذين كانوا قد قرروا في تموز الماضي الدعوة الى همدنة من جانب واحد مع الدولة المصرية قد تم تمهيشهم لمصلحة قادة آخرين اكثر تطرفا يريدون الاستمرار في العمل العسكري بل وتصيده.

وكان دعاة الهدنة قد برروا موقفهم بضرورة أخذ "مواقف مبارك الوطنية" بالحسبان بينما يبدو مفتعلو حادثة الاقصر وكأنهم، عن دعي او غير دعي، يعملون لارباك الحكومة المصرية بجمعها تتخلى عن نشاطها العربي الدؤوب لمصلحة الفلسطينيين او ضد مؤتمر الدوحة او لمحاولة تجنب مواجهة عسكرية في الخليج وبدفعها للعودة الى مشاغل داخلية، ومن هنا يصح التساؤل عن - وما - يحرك هذه العمليات الدموية في هذا الظرف بالذات تساؤلا شرعيا عند أي مراقب للهم الا اذا كان اعضاء هذه الجماعات يعيشون في زمن ووفق مواعيد وحسابات لا علاقة لها البتة بمجرى السياسة العربية الرسمية، يقتلون حين يقدرن، ويباردون حين تحين لرجالهم فرصة دون البحث في عاقبة ما يفعلون، وهذا ايضا ممكن. غير ان النتيجة احده: ضربة قاسية لاقتصاد مصر، ولنموها من جانب وانقاص كبير لهيبتها الاقليمية من آخر.

وكانت القاهرة قد تحولت في الاشهر الاخيرة الى نوع من العواصم الكبرى كما في غز ازدهارها السياسي، تستقبل وتتوسط وترعى وتبارح وتعود الى نفمة قيادتها للعرب كما في ايام ولت من الخمسينات والستينات. ويوم السبت الماضي القى الرئيس المصري خطابا في مجلس الشعب كله مشاريع وطموحات وكان مصر باتت "نمرا آسيويا" آخر يتمتع بنموه الاقتصادي الواضح كما بنفوذ السياسي المستعاد.

لكن هذا الشعور بالثقة يصيبه شعور ما بالهشاشة عندما يقارن المرء هذه التحولات الحقيقية بالاعلام عنها، والاعلام ما زال في مصر في جله الاعظم أداة طبيعة في يد النظام. فخطاب مبارك العادي بات "تاريخيا" ان استمعت الى نشرة التلفزيون المصري في اقرأت "الاهرام" لتجد ان ٤ صفحات اضيفت الى غلافها بصورة استثنائية لنشر مقاطع من الخطب بأحرف ضخمة. ويصاب المرء بقدر من التقرز من هذا التناقض الصارخ